

مقاربة فلسفية لمقولة الجسد

The Philosophical Approach To The Subject Of The Body

عماري خيرة

AMARI KHEIRA

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله - قسم الفلسفة، kheira.amari@univ-alger2.dz

تاريخ النشر: 2026/05/31

تاريخ القبول: 2026/01/24

تاريخ الاستلام: 2024/04/15

الملخص: يستوجب الحديث عن الجسد من منظور الفلسفة الوقوف عند الكثير من المعطيات التي أحاطت بهذا الطرح في كل حقبة زمنية بدءًا بالتاريخ القديم للفلسفة وصولاً إلى اللحظة الراهنة، وقد ارتبط هذا المفهوم بالبعد المادي للإنسان الذي يُحيل إلى الزوال والتغير والفساد، فكان الجسد عند أغلب الفلاسفة العقليين مصدراً للآثام و الشرور التي تصدر عن الإنسان وتحط من قيمته. مما جعل هؤلاء يدعون إلى القطيعة مع الجسد إذا أراد الإنسان أن يعيش ماهيته كذات عاقلة.

إلا أن الأمر تغير في الفترة المعاصرة عندما أصبح الجسد موضوعاً للمعرفة ، يفكر فيه فلسفياً و يُكتب فيه ، حيث أبانت هذه الكتابات أن الجسد لا يقل في قيمته الوجودية عن العقل ، بل أكثر من ذلك حيث أصبح بمثابة جواز سفر الإنسان في هذا العالم المعاصر . فكيف حدث تحول تصور الجسد من منظر إدانة وإقصاء ليصبح قيمة وجودية للإنسان المعاصر ؟

كلمات مفتاحية: الجسد-قيمة-إدانة-العقل- الفلسفة - القديمة- الحديثة .

Abstract

Discussing the body from a philosophical perspective requires taking into account the various factors that have shaped this discourse across different historical periods, from the beginnings of ancient philosophy to the present day. Traditionally, the body has been associated with the material aspect of human existence, implying transience, change, and decay. For most rationalist philosophers, the body was seen as the source of sin and evil within the human being, thereby diminishing human value. Consequently, these thinkers called for a detachment from the body in order to live authentically as rational beings.

This view, however, underwent a significant transformation in modern times, as the body became a subject of knowledge, philosophical reflection, and written discourse. These writings have shown that the body is not inferior in existential value to the mind; on the contrary, it has come to function as a kind of passport for the individual in the modern world. How, then, did the perception of the body shift from condemnation and exclusion to a site of existential value for contemporary humanity? **Keywords:** Body; Value; Condemnation; Mind; Philosophy; Ancient; Modern.

المؤلف المرسل: عماري خيرة الإيميل: [symponie_sof@yahoo.fr](mailto:symphonie_sof@yahoo.fr)

1- مقدمة :

يُعدُّ البحث في تركيبية الإنسان من أهم الموضوعات التي اشتغل عليها الفلاسفة قديماً وحديثاً . وإذا كانت أغلب أرائهم تقر بثنائية هذه التركيبية التي تجمع بين العقل والجسد ، فإن توجهاتهم الفلسفية اختلفت في طبيعة الإنسان هل هي عقلية خالصة أين سيكون الجسد تابع لها ، أم هي مادية جسمانية خالصة و بالتالي سيكون العقل عارض من اعراض هذه الطبيعة الجسمانية ؟ ولأن الإنسان متميز عن باقي الموجودات بالعقل ، ساد التوجه العقلاني المثالي الذي يمنح الأولوية للعقل ، وهذا منذ اقدم العصور لا سيما عند فلاسفة الاغريق أين كان التفكير في الجسد من المسكوت عنه الذي لم يرق في إلى مستوى الطرح الفلسفي الجاد ، لما يحيط به من علائق كثيرة و متداخلة جعلته في خانة اللامفكر فيه أو اللامنطوق به . لقد كان الجسد بمثابة الوجود المظلم في حياة الإنسان في مقابل الوجود المضيء لنور العقل و الروح . وفي هذا السياق اجتمعت اغلب الاطروحات الفلسفية الكلاسيكية على إدانته والإطاحة بقيمته ، باعتباره سجناً للروح وعقاباً لها و لا يمكن للإنسان الخلاص في هذه الحياة إلا إذا ترفع عن مطالب الجسد واستغرق في اتباع العقل الذي يرتقي به الى اعلى الدرجات . وهيمن هذا التوجه على عصور من التفكير الفلسفي ، إلى غاية ظهور أطروحات جديدة افرزتها التحولات التي عرفتتها الحياة في مختلف مجالاتها ، كشفت عن الجسد باعتبارها بعداً أساسياً في الوجود الإنساني لا يقل أهمية عن البعد العقلي . إلا أن هذه الأطروحات اصطبغت - في كثير من المجتمعات - بصبغة سياسية و إيديولوجية، وارتبط بمسائل عويصة من قبيل المظاهر الاجتماعية كالحجاب والمظاهر الحميمة كالجنس والحدود بين الأجناس وكذا التحولات الجنسية والهوية البيولوجية . مما جعل بعض الدراسات الفلسفية تتناول مقولة الجسد للكشف عن مدى ارتباط وجودنا الإنساني بالبعد الجسدي . فهل استطاعت الفلسفة ان تسترجع هذا البعد وتلحقه بجوهر الوجود الإنساني ؟ وما الذي يضيفه الجسد إلى حقيقة الإنسان ؟

1-الجسد يصنع وجودنا :

للكشف عن مدى ارتباط وجودنا بالجسد سنقارب هذا المفهوم من الناحية الاشتقاقية و اللغوية ، حيث نتقارب دلالة الجسد مع دلالة الجسم وتتقاطع في كثير من المجالات ، باعتبار ان كل من الجسم والجسد يشغلان حيزاً من المكان والزمان أو بتعبير ديكرت ممتدان ، إلا أنَّ دلالة الجسم تنفرد عن الجسد بكونها أعم وأشمل : فالجسم يشمل كل ما يشغل حيزاً من المكان والزمان سواء كان صلباً ، جامداً أو حياً ، أو بتعبير

آخر تعدّد الاجسام هي الطبيعة الصلبة الجامدة والحية . بينما تنحصر دلالة الجسد على الطبيعة الحية والحيوانية بالخصوص . وتزداد خصوصية لتتحدّد دلالتها على الطبيعة الإنسانية بدرجة أدق . ومن هنا ألحقت دلالة الجسد بالوجود الإنساني الذي يتحدّد بلحظتين أساسيتين هما لحظة الميلاد ولحظة الموت.

يتحدّد إذن الجسد كفاعلٍ محوري للحظة الميلاد التي تتحقق بمجيء هذا الجسد إلى الوجود، أو هو الحاوي المادي لهذا الوجود . وهو ذات الجسد الذي يصنع فرحة المجيء إلى الحياة فالميلاد هو ميلاد جسد بالدرجة الأولى حيث يتحدّد هذا الجسد بنوع الجنس هل هو ذكر أم أنثى ؟ و بأعراض هذا الجنس كاللون والحجم والقامة... وكل هذه التفاصيل الجسدية تنسج ماهية حياة هذا الإنسان في بعده البيولوجي بالدرجة الأولى. وفي مقابل لحظة الميلاد تتموضع لحظة الموت باعتبارها هي الأخرى فاعل محوري يتحدّد بمغادرة هذا الجسد للحياة : فالموت هو غياب جسد ونهاية وجود جسدي يصنع ألم الفراق . وإذا كان جسد الميّت يصنع الكثير من الإنفعالات كالحزن ، الهلع ، الخوف ، الألم ، التمزق، وغيرها من مشاعر الإحباط ، فإنّ كل واحدة من هذه المشاعر تجد لها النقيض في لحظة ميلاد هذا الجسد : فبحجم الفرح و السعادة و الغبطة التي تملأ مشاعرنا بمجيئ و ميلاد جسد جديد لفرد جديد تكون مشاعر الجزن والألم و الفزع و الهلع بموت ذلك الجسد . لذلك كانت مقولة الموت بمثابة السؤال الأكبر الذي استوقف العقل البشري وطرح أمامه تساؤلات عديدة و مختلفة باختلاف ثقافة المجتمعات وعقائدها لدرجة جعلت الباحثين في مجال الإتنوغرافيا يكتشفون في رمزية بناء القبور رغبة الإنسان في الإبقاء على الوجود الجسدي للميّت (Fernand.Schwarz, 1998, p. 55) . فالجسد هو الذي يصنع الحضور والغياب ، وهو الحامل لإنفعالات وجودنا : التلذذ ، التعب ، الرغبة ، الألم ، النجاح والتفوق من دون أن يحتكر هذا الجسد وحده ماهية الوجود الإنساني أو كما قال كلود برييار Claude Bruaire : أنا لست هذا الجسد ، ولكني بحاجة لحياة الجسد لكي أكون"

Je ne suis pas mon corps , mais la vie d'un corps m'est necessaire pour exister » (Bruaire, 1969, p. 25) . فإذا كان الجسد يصنع وجودنا و يمثل هذه الحمولة الوجودية للإنسان ، فهل أنصفت الفلسفة مقولة الجسد بمثل ما أنصفت مقولة العقل ؟

الجسد المُدان:

تناولت أغلب الفلسفات القديمة موضوع الجسد من منظور ميتافيزيقي لاهوتي قام على احتقار الجسد و التعامل معه كضرب من الحضور المرحج الذي يتوجب التحكم فيه وترويضه أو حتى إخفائه أو إسقاطه من

معادلة الوجود الإنساني ، وقد لخص الفيلسوف بروسـت Marcel Proust هذا الطرح عندما اعتبر الجسد اكبر تهديد للعقل. فالجسد موطن الشرور وبؤرة الدنس والرذيلة وسجناً للروح ومصدراً للآثام التي تحول دون بلوغ الإنسان درجة الكمال، فكأنه الجانب الشيطاني في الوجود الإنساني مقابل الجانب الملائكي النواراني الذي يمثلـه العقل . ومن هذا المنطلق جاءت الأديان وبعض المذاهب الفلسفية لكي تعلم الإنسان كيفية الانفصال والتعالي عن الجسد الذي يجزنا إلى الآلام والآثام والمعاصي. وكأنه الآخر الغريب عن هويّتي أو الدخيل عليها الذي قد يشوهها ، ولذلك كان يرمز إليه في الميثولوجيا الإغريقية من خلال تمثال الإله Glaucus. هو الإله الذي بقي في قاع البحار والذي كان في تحوّل مستمر وعرضة لما يسمى بالكون والفساد، او ما يسمى بلغة الكندي (صليبا، 1994، صفحة 190) - الأيس والليس - على اعتبار ان الأيس هو الوجود في المعنى اللغوي الكبير والليس هو العدم ويقابل هذا المصطلح عند ابن رشد الكون والفساد. وباعتبار ان موضوع العلم هو الثابت وليس المتغير ، فان الجسد القابل للتغير والتحول لا يستحق ان يكون موضوعاً للتأمل الفلسفي ولا ان يكون موضوعاً للمعرفة عموماً.

تمّ تعطيل مقولة الجسد لأن الحضارة الغربية - القديمة منها بالخصوص - تطلّعت إلى الروحانيات أكثر من الماديّات . وقامت كبرى الفلسفات المثالية والمسيحية-اليهودية بشكل أو بآخر بتنميين وتقدير عالم الفكر مقابل احتقار العالم الحسّي الذي يدعو إلى الإنغماس في الفوضى وصراع القوى المتناقضة التي تحول دون بلوغ العالم الحقيقي أو المابعد au-delà .

ويكفي ان نستطلع اهم ماجاء في تاريخ الفلسفة على لسان سقراط باعتباره علامة فارقة في التفكير الانساني ، لأنه استطاع بجدارته ان ينقل العلوم الفلسفية من فلسفة الوجود الى فلسفة الاخلاق ثم الى فلسفة الحكمة ، هذا الرجل الذي رفع شعاراً مهماً ألا وهو التدريب على الموت باعتبار الحياة اتجاه نحو الموت وعند لحظة الميلاد ذاتها تبدأ مسيرتنا نحو الموت. فكانت مهمة الفيلسوف الاساسية هي تدريب الإنسان على الموت، وذلك بتوجيه سهام نقده الى الجسد ، لأنّ الاصل في الإنسان هو النفس والروح بينما الجسد هو ظاهرة او تجلٍ لهذه الروح وآلتها . وفي ذات السياق اعتبر أفلاطون الجسد سجناً للروح وعقاباً لها على ما اقترفته من آثام ، ولا سبيل لتطهيرها إلا بانفصالها عن الجسد أو إزرائها له . كما جاء في محاوره فيدون لوكريتيوس حيث قال : "جسدنا هو غلاف الروح التي بدورها هي الولي عليها وحاميها" واضاف قائلاً : "الروح لا تفكر أبداً أفضل مما تفعل عندما تعزل نفسها تماماً داخل نفسها ، وترسل الجسد إلى الشرود". (افلاطون، 2001، صفحة

78) فالنفس تنسم بالخلود في مقابل زوال وفناء الجسد .

ولم تخرج الفلسفة المسيحية هي الأخرى عن هذا المنظور حيث تناول القديس اوغسطين موضوع الجسد قائلاً «إن النفس والجسم لا يؤلفان شخصين بل إنساناً واحداً : النفس هي «الإنسان الباطن» والجسم هو «الإنسان الظاهر» دون أن تصير النفس جسماً، أو يصير الجسم نفساً، وليس محل النفس جزءاً معيناً من الجسم، كالرأس أو القلب، بل الجسم كله، وهذا لازم من بساطة النفس، وظاهر من أنه حين يحس أدق جزء من الجسم تعلم بذلك النفس كلها،" (اوغسطين، 1987، صفحة 102) . يقترب هنا اوغسطين من النظرية الأرسطوطالية، والتي تعتبر الإنسان كائناً طبيعياً، ولكنه من ناحية أخرى يفسر الاتحاد بأنه «انتباه» النفس للجسم، ومزاولة قدرتها فيه بواسطة الهواء والنار، وهما أقرب العناصر الجسمية إلى الروحانية

وفي مقابل الفلسفة المسيحية ، تناولت الفلسفة الإسلامية هي الأخرى موضوع الجسد لكن من خلفية عقائدية مختلفة حيث يرى ابن سينا أن الإنسان يتألف من روح وجسد، أو بتعبيره " من سر وعلن، فسرهُ هو الروح وعلنه هو بدنه،" وان النفس جوهر مستقل عن البدن ... وأن الإنسان غير هذا البدن المحسوس ذلك أن النفس تتخذ البدن آلة لها لاستكمال حقيقتها والرجوع إلى الحضرة الإلهية، حيث تعيش في سعادة أبدية" (ابن سينا، 1952، صفحة 88) . فالإنسان في نظر ابن سينا - بفعل طبيعته الجسدية- يقترب من الحيوان وبتدنى، أما بفعل الروح فيرتقي أكثر علماً ومعرفة . وعلى هذا الأساس فالإنسان هو عبارة عن جوهر روحاني خالص، يستعمل البدن مطية للالتحاق بواجب الوجود (الله) والاتصال به والتوق إلى حضرته؛ نظراً للطبيعة الإلهية للروح، فهذه الأخيرة لن تحظى بالسعادة إلا بموت الجسد، وخلصها من علائقه تماماً، يقول ابن سينا: "وهذا مذهب الحكماء الإلهيين، فإنهم شاهدوا جواهر أنفسهم عند انسلاخهم عن أبدانهم واتصالهم بالأنوار الإلهية" (ابن سينا، 1952، صفحة 88) جاءت معظم الأطروحات القائمة على ثنائية الجسد و الروح - الفلسفية منها و الدينية- لتنتصر للقوى العاقلة في الإنسان ، فتُعلى من شأن النفس والروح والعقل وتحط من قيمة الجسد باعتباره مصدر الآلام و الشرور التي تمنع الإنسان من بلوغ السعادة . فهل استمر هذا الاقصاء للجسد في الفترة الحديثة والمعاصرة ؟

مقولة الجسد في الفلسفة الحديثة و المعاصرة :

تناولت الفلسفة الحديثة مقولة الجسد من خلال اطروحات متباينة : فديكارت مثلاً يقول عن الجسد : "هذه الكلمة الأساسية ملتبسة للغاية. عندما نتحدث عن الجسم بشكل عام ، فإننا نعني جزءاً محدداً من المادة ، والكمية الكاملة التي يتكون منها الكون. ولكن عندما نتحدث عن جسد رجل أو امرأة ، فإننا نعني كل الأمور التي تتحد مع روح هذا الرجل " حيث ميز بين الجسم المادي عموماً وبين جسم الإنسان العاقل . و في كتابه (ديكارت، 2009، صفحة 43) تعرض الى المواضيع التي يمكن الشك فيها من اجل بلوغ اليقين . واكتشف أنه يمكنه الشك في

كونه يمتلك جسداً لاحتمال ان يكون في حلم، أو أنّ شيطاناً ماكراً صور له هذا الخداع لكنه لم يستطع الشك في كونه يمتلك ذهنًا. فتوصل بذلك ديكارت إلى أنّ الذهن والجسد عبارة عن أشياء مختلفة. فالذهن بالنسبة لديكارت عبارة عن شيء مُفكر، وجوهر غير مادي، بينما الجسد هو الشيء الموجود والممتد. وقد ناقش ديكارت هذا التمييز بين الذهن والجسد في التأمل السادس من كتابه، على النحو التالي: لديّ فكرة واضحة ومتميزة عن نفسي بوصفها شيئاً مفكراً، وليس شيئاً ممتداً، وفكرة واضحة ومتميزة عن الجسد بوصفه شيئاً ممتداً وليس شيئاً مفكراً. والله قادرٌ على خلق ذلك (ديكارت، 2009، صفحة 100). إلا أن الذهن والجسد يتداخلان معاً بشكل سببي، حيث ينتج من الأحداث الذهنية أحداثٌ مادية والعكس بالعكس.

وكان لسبينوزا هو الآخر تصورا عن الجسد وجاءت اراء الفيلسوف الشاب - في كثر من تصوراتها- امتدادا للتثنائية الديكارتية باعتبار الجسد والعقل شيئين منفصلين، ولكنه عاد وغير وجهة نظره في وقت لاحق وأكد أنهما غير منفصلين، وأنّ العقل والجسد شئ واحد، وذلك من منطلق وجود جوهر واحد يحمل صفتي الفكر والامتداد في آن واحد. فالعقل والجسد عند سبينوزا صفتان أو حالان للجوهر الواحد. والعقل هو الحال المخصوص لجسد إنساني معين، ذلك لأن لكل جسد إنساني عقله الخاص، وهو يقول في ذلك: «إن موضع الفكرة التي تشكل العقل الإنساني هي الجسد، الذي هو حال خاص للامتداد وليس شيئاً آخر سوى ذلك» (سبينوزا، 2009، صفحة 72) وكل حادثة جسمية توازيها حادثة أخرى مماثلة لها على مستوى العقل، بمعنى أن كل ما يشعر به الجسد باعتباره إحساس يشعر به العقل باعتباره شعوراً أو فكرة. ويضيف في ذات السياق قائلاً: "بالجسد أعني الوضع الذي يعبر عن جوهر الله، بقدر ما يُنظر إليه على أنه شيء مسموع، بطريقة معينة وحازمة" (سبينوزا، 2009، صفحة 72)

أمّا الفيلسوف لبنيتز فقد عبر عن اطروحته حول الجسد قائلاً: "وهكذا فإن النفس لا تغير جسمها إلا ببطء وبالتدرج، بحيث لا تجرد أبداً من جميع أعضائها دفعة واحدة، وكثيراً ما يتمّ التحول بين الحيوانات، ولكن تقمّص الأرواح أو تتاسخها لا وجود له على الإطلاق، كذلك لا توجد نفوس قائمة بنفسها أو مستقلة تمام الاستقلال (عن الأجسام) ولا أرواح بغير أجسام. إن الله وحده منزّه عن الجسمية كل التنزيه، ولهذا السبب لا يوجد أبداً تولّد كامل ولا موت كامل بالمعنى الدقيق، أي بمعنى انفصال النفس عن الجسد. وما نُسمّيه بالتوالد إنما هو نوع من التطور والنمو، أما ما نُسمّيه بالموت فهو انكماش وتناقص." (لبنيتز، 2015، صفحة 35) فالعقل الإنساني يعتمد بالضرورة على وجود الجسد، وهو إن وُجد فلا بد أن يكون مواندة رئيسية متحكّمة في مجموعة من المواندات الدنيا، أعني في جسدٍ عضوي، ويستحيل عليه أن يكون غير ذلك. و المادة عند لبنيتز هي المظهر الذي تتجلّى فيه

المونادات اللامادية. ومعنى هذا أن المادة متعلّقة بالعقل تعلّقاً أساسياً، بل إنها لثوّيك أن تكون ذات طبيعة عقلية، وكل جسم عضوي لكائن حي هو نوع من الآلة الإلهية والذي يتفوق بشكل لا نهائي على جميع الآلات الاصطناعية.

لم تتمكن أغلب الاطروحات الحداثية حول الجسد من التخلص من الحمولة والخلفية الميتافيزيقية ، حتى وإن ادّعت أغلبها القطيعة مع كل ما هو ميتافيزيقي لاهوتي باستثناء بعض الفلاسفة أمثال سبينوزا والذي تقوم فكرته الأساسية على النظر إلى الجسد كقوة لم تستثمر بعد . وراح يتساءل عن إمكانات هذا الجسد وليس بغرض السيطرة بقدر ما هو استقصاء عن الجسد كقوة فاعلة وهو الأمر الذي شدّ انتباه الفيلسوف نيتشه و استثمر في هذا البعد الذي كثيراً ما كان محلّ إقصاء.

لقد شكلت اللحظة النيتشوية منعرجاً حاسماً في تاريخ الفلسفة الغربية من حيث المضمون والمنهج . ومن هذا المنطلق أصبح التفكير في موضوع الجسد ممكناً ليس كمقولة تقابل الروح فحسب ، بل كتركيب حي وكطرف أساسي في الوجود الحيوي للإنسان . أراد الفيلسوف نيتشه أن يبعث مقولة الحياة مجدداً في الوجود الإنساني بعد أن أفقره الوجود العقلي الروحي والميتافيزيقي من هذه الطاقة. وجعل من الإنسان الحادثة إنسان أخيراً -على حد تعبير نيتشه - وجعل رهان فلسفته هو ميلاد الإنسان الأعلى الذي يجب الحياة و يحب جسده و يحب الارض ، هو الإنسان المتصالح مع بعده الجسدي .

فالجسد هو جسد حي والحياة تقوم على شروط مرتبطة بالحياة ذاتها وليس العكس . ولذلك رفض نيتشه نظرية داروين التي تصور الحياة في شكل من الضيق والفقر في حين ان الحياة هي أولاً و قبل كل شيء بذل وعطاء وفيض وقوة واستزادة ، وليس للأحياء حاجة إلا لامتلاكهم مسبقاً للحياة او كما قال " الحياة دينامي فريد من نوعه لمجموع القوى المنتظمة وفق تراتبية لا تلبث أن تتغير في الزمن والتي تنمو وتتصارع وتزايد وتتصاغر باستمرار، في إلتحام وتعاون وانتظام يسمح بإثبات هذا الكل كـ " إمكانية العيش والنمو بطريقة الكل والبقاء لفترة من الزمن. " (نيتشه، 2011، صفحة 65) ونتيجة ذلك اعتبر نيتشه ان الأنا الحقيقي والأقرب الى الانسان هو الأنا العضوي والجسدي ، فهو يعكس الى حد بعيد الإنسان في بعده الحيوي النفسي الانفعالي الغريزي ، وهو البعد المسكوت عنه واللامنطوق في اغلب الفلسفات النسقية الكلاسيكية . وكأنه بذلك أعاد رسم خريطة الإنسان جاعلاً من الجسد مركزاً ومحوراً أساسياً للوجود ، حيث لا يختفي هذا الجسد وراء اقنعة المثل العليا والمقولات العقلية المجردة والصرفة . فالإنسان انسان بالجسد ولا يجب ان نستحي من ذكر غرائزنا كما يقول نيتشه

فجاءت فلسفة نيتشه لتتصف الجسد الانساني وتقله الى حقل التفكير الفلسفي . ومن هذا المنطلق كانت فلسفة نيتشه منعرجا مهما في الطرح الفلسفي لمقولة الجسد وشكلت أرضية خصبة لأغلب الاطروحات الفلسفية المعاصرة .

وجاءت فلسفة ميشال فوكو لتستثمر في جينالوجيا نيتشه عن طريق الحفر الاركيولوجي الذي قام به هذا الفيلسوف حيث استدعى الأرشيف لتحليل اغلب المفاهيم و التصورات الفلسفية :فتناول مسائل الجنس و الجنون و السلطة و كلها مباحث تتمحور حول الجسد ، بل الجسد هو أدواتها ، فتاريخ الجنس كما بحث فيه هو تاريخ جسد يرغب...يميل...يمارس و الجنس هو بمثابة لغة الجسد التي لايفقهها العقل. والجنون هو تمرد هذا الجسد عن المألوف الاجتماعي. كما تستعين السلطة بالجسد لتمارس شرعيتها باعتبار العقاب هو عقاب جسد بالدرجة الاولى كما وضحه ميشال فوكو في كتابه المراقبة و العقاب . وفي ذلك إسقاط لمنظومة قيمية اخلاقية او قانونية على الجسد : فالأم التي تضرب ابنها الذي كذب عليها ، إنما تستعين بجسده لكي تنقل له قيمة اخلاقية متمثلة في الصدق . والسلطة حين تسجن فهي تحاصر الجسد من أجل ترسيخ سلطة القانون .

يمثل الجسد إذن مجموع الإمكانات الهائلة التي التي تنطوي عليها الكينونة المتجسدة بشكل كامن، والتي تحكم مسارات كل أطوار الثقافة في التاريخ . أو ما يسميه كلود ليفي ستروس Levis strauss بالرصيد الكلي للإمكانات. وكلّ ثقافة وكلّ حقبة تاريخية تختار من ذلك الرصيد بعضاً منه تستيقبه و آخر تطوره. لكن هل جاء التفكير في الجسد - في الازمنة الحاضرة و المعاصرة- مجرد رد فعل قوي ضد الإقصاء الذي مارسه الميتافيزيقا؟ أم أن التفكير في الجسد هو ضرورة إبستمية و استجابة لمعطيات حضارية و تقنية أفرزها العصر ؟

مع تطور الحضارة وظهور التقنية تغيرت نظرة الإنسان إلى الحياة عموماً وإلى وجوده بالخصوص، وقد شمل هذا التغيير نظره إلى ذاته في بعدها العقلي والجسدي . وعندما امتزجت التقنية بالعلم تحولت هذه الأخيرة الى عقيدة الإنسان المعاصر كما قال هيدغر " التقنية هي ميتافيزيقا هذا العصر". وهي أدوات لتحقيق كل يريده . فكيف تعاملت التقنية مع الجسد ؟ و ماهي الخدمات التي ينتظرها جسد الإنسان من التقنية خاصة إذا علمنا أن هذه الحضارة هي حضارة مظهر وحضارة السطح ، حضارة تعتمد على ما تراه العين بالدرجة الأولى لتجعل من ذلك المظهر قيمة وجودية وحضارية . ومن هذا المنطلق ، اصبح جسد الانسان محوراً أساسياً وهاجساً مهما تشغل عليه الحضارة المعاصرة بكل مجالاتها لتجسيد مفهوم الانسان الأعلى الذي جاء به نيتشه .

لم يبق الجسد موضع إدانةٍ أو محلّ نقمةٍ أو ذلك العدو الذي يجب محاربته و إسقاطه من معادلة الوجود الإنساني ، بل أصبح الجسد وجودنا الآخر أو وجودنا الجديد - الحقيقي-، نستمتع إليه ونحبه ونحاول ان نتواصل معه و نستوعب خطابه بشتى الطرق ونعزّز قدراته وملكاته بالاستعانة بالعلوم والتكنولوجيا للحفاظ عليه والرفع من أدائه وإمكاناته إلى أقصى درجة ممكنة . بالإضافة إلى الرفع من قيمته الجمالية إلى درجة تأليه هذا الجسد . كما نجد هذا الاهتمام عند اغلب التوجهات الفكرية المعاصرة البراغماتية منها بالخصوص و تعزّر ذلك في مرحلة ما بعد النزعة الانسانية post-humanisme التي شهدت تحولاً في رسم صورة الجسد بعد أن اخترقت التقنية حياة الإنسان ، وأصبحت هذه الأخيرة تشكل الخلفية التي ترسم هذا الجسد وتصنعه . ونتيجة ذلك أضحى هذا الجسد صناعة ، تقوم عليها الجراحة التجميلية من جهة و الصناعة الطبية من جهة اخرى وتسهر على ذلك مؤسسات الإعلام والدعاية . فهل تخلصنا حقيقةً من إدانة هذا الجسد أم غيرنا فقط- صورة هذه الإدانة ؟

-صناعة الجسد :

اضحى الجسد محور الوجود الإنساني في عصر المادة و تمظهراتها ، مثلما يظهر ذلك في كتاب صدر مؤخراً بعنوان Le nouveau culte du corps Yannis Constantinidès , أين تساءل الكاتب عن مفعول الحضارة وتطور التقنية في الجسد ؟ هل طورت آداءات الجسد أم جردته من طبيعته ؟ وهل عملت التقنية على مصالحة الإنسان مع جسده أم عمّقت شعور الإدانة ؟

يبدو أنّ التقنية في نظرالكاتب ، لم تكن يوماً بريئة في تعاملها مع الجسد . إذ أصبحت تشكّل النسيج الوجودي للإنسان وعملت التقنية على التطوير من آداءات الجسد ولكنها في ذات الوقت تعمل على التقليل من إمكاناته الطبيعية واستبدالها بإمكانات اصطناعية . فكلّما ازدادت ثقنتا في الآلة كلّما انسحبنا شيئاً فشيئاً من أجسادنا واغتربنا فيها بلغة كارل ماركس . وأصبح الجسد شيئاً أو منتجاً تتحكم فيه آليات السوق محدد تاريخ بداية المنتج و تاريخ نهاية صلاحية هذا المنتج . ويبدو أن ما قدّمته الحضارة و التقنية لم يحرّرنا بعد من شعور الإدانة ، وكل ما حدث هو عملية تحويل او تعديل في شكل الإدانة : détournement de culpabilité . فأين يتجلى هذا التحوّل ؟

اختلفت مقاييس الجمال الجسدي ، ففي الوقت الذي كان يعدّ فيه الجسم الممتلئ رمز للجمال وللغنى ولل قوة كما كان سائداً في القرن 15-16 ، أصبح ذات الجسد شبه منبوذ في عصرنا ويكفي أن نقف عند حالات الإكتئاب

والتي قد تصل إلى الإنتحار لدى المصابين بالسمنة أو الإفراط في الوزن من الرجال والنساء خصوصاً. هو شعور بإدانة هذا الجسد السمين أو القبيح الذي يحيلهم على هامش الحياة الإجتماعية وحتى العاطفية . فيلجأ هؤلاء إلى الجراحة التجميلية أو إلى ممارسة الرياضة علّهم يخففون من هذا الشعور بالإدانة ويصبحون يحبّون فتزداد بالتالي فرصة وامكانية ان يحبهم الآخرون . وقد وجد الكاتب أن في مثل هذه الحالات ارتدادات دينية تدعو إلى ضرورة تجاوز الذات (constantinides, 2013, p. 96). حيث هناك إذن تحوّل في الإدانة من امتلاك جسد كما جاء ذلك في الطرح الميتافيزيقي إلى شعور بافتقاد الجسد الكامل *la culpabilité de n'avoir un corps parfait* . فالكل يسعى لبلوغ صورة هذا الجسد : ملكات الجمال وعارضات الأزياء وأغلبية الفتيات وحتى البعض من الرجال هؤلاء جميعاً يرون انهم لم يصلوا بعد إلى الجسد الذي يتمنونه .

اصبح الجسد هو ذلك "المثال" idéal الذي لا يمكن بلوغه أبداً، إذ نجد لدى أجمل امرأة في العالم شعور بعدم الرضى بجسدها ومهما عملت على تحسينه ، فهي دائماً تريد أفضل وأجمل . وحتى وهي تحمل لقب أجمل امرأة في العالم تبقى بداخلها شعور بعدم الرضى . ولأجل بلوغ ما تصبو إليه تريد هذا الجسد متحرراً من الضرورات الطبيعية جسد لا يجوع كثيراً ، وقد لا يجوع بتاتاً ولا ينام كثيراً، بل يمارس الرياضة من دون تعب ، ولا تظهر عليه علامات التقدم في السن .. ولا ينسى. فلا تظهر صور ملكات الجمال وهي تأكل وكأن الأكل يشوّه حقيقتها، كما لا تظهر صور ملكات الجمال وهي تتألم من التعب ، وكأنها تريد أن تمتلك جسدا تخلص عن وظائفه الأساسية الطبيعية . فتعمل الحضارة على إضعاف الجسد الطبيعي وتجريده من كل احتياجاته الضرورية حتى تتمكن من التحكم فيه أكثر وترويضه وتحريره من تبعاته تجريده من طبيعته .

ففي مسابقات ملكات الجمال في العالم ، يوضع جسد المرأة دائماً كمثال أعلى منها يصعب بلوغه، ويبدو ذلك الجسد في كثير من الأحيان غير طبيعي متحرّر من احتياجاته الطبيعية ، فهو جسد لا يجوع أبداً ، وصاحب هذا الجسد مطالب بأن لا يستجيب لرغبة الأكل حتى يبدو على تلك الصورة المثالية . فكأننا نحن نجعل هذا الجسد مريضاً حتى نستطيع التحكم فيه . ويكفي أن نلاحظ حالة الفرد الذي يعاني من الوزن الزائد أو السمنة المفرطة أو ملاحظة نفسية الفناء ذات المظهر القبيح . فأضحت زيادة الوزن أو الشكل القبيح من أكبر المآسي التي يمكن ان يعيشها الفرد في عصرنا هذا. ويكشف الإقبال الكبير على الجراحة التجميلية وممارسة الرياضة نقاط تقاطع بين نظرتنا للجسد اليوم و نظرة الكنيسة في القرون الوسطى : فكلاهما يقومان على مبدأ الرفض وعدم

الرضى على هذا الجسد. وكل ما هنالك هو فقط تحوّل في الإدانة من الشعور بامتلاك الجسد ، إلى الشعور بامتلاك جسد غير كامل أو غير مرغوب .

الجسد قيمة القيم: اكتسب مفهوم الجسد - نتيجة هذا التحول الكبير الذي لحق بالحياة في جميع مجالاتها- تصوراً جديداً إذ تحوّل إلى جواز عبور ، بطاقة قبول في علاقتنا بالآخر ، حيث تحدّد معطيات الجسد من طول ووزن و لون البشرة والعينين ..إلى حدّ بعيد مكانة ووظيفة الفرد في المجتمع فهو يمثل الهوية العضوية أو الأنا العضوي بلغة الفيلسوف نيتشه . فالיום أصبح الجسد قيمة لا بد من إظهارها إجتماعيا حتى نحضى بالقبول الاجتماعي .

وقد تكون مفارقة العصر في أنه من جهة يجب إبراز الجسد كقيمة و من جهة أخرى نحمل بداخلنا عدم الرضى عن هذا الجسد . وبدل من أن ننمّيز كأفراد بالفروقات في القدرات و الملكات والمؤهلات التي تميز بعضنا البعض، حلّ الجسد محلها بكل ما يميزه كقيمة تحدد موقع الإنسان في مجموع الصفقات والمشاريع والاعمال التي يخوضها في الحياة . وقد تناول فيلسوف ما بعد الحداثة سيغموند باومان Sigmund Baumann هذه المسألة بكثير من التفصيل في سياق حديثه عن الحداثة المفرطة أو الحداثة السائلة وإسقاطاتها على صورة الجسد ، حيث أصبحت صناعة الجسد فرعاً قائماً بذاته تجتمع حوله الكثير من العلوم كالبيولوجيا التكنولوجيا الهندسة الكيمياء الاقتصاد و التجارة و السياسة والدين وغيرها وكل هذه العلوم تساهم في انتاج صورة معاصرة جديدة لجسد الإنسان .

وفي رياضة كمال الأجسام مثلاً ، يسعى الفرد لامتلاك عضلات بارزة مفتولة براقة وبارزة للعلن ومن أجل بلوغ ذلك نجده يتقانى في التدريب لساعات طوال وقد يعزز ذلك بتعاطي مستحضرات كيميائية، ولا يأبه حينها بالآثار السلبية لهذه المواد على جسده والتي قد تقوده إلى الهلاك والموت أو التأثير على الوظائف الحيوية للجسم التي تعرض صاحبها لازمات قلبية أو للعقم ..وصاحب هذه الجسد القوي للعيان قد لا يقوى صاحبه حتى على أداء أبسط الحركات كالركض مثلاً أو المشي لمسافات طويلة خوفاً من تعرضه للاصابات . وذات الأمر يمكن ملاحظته عند النساء المهوسات بالجسد النحيف . فاصبح الهدف هو إظهار الجسد المروّض باخفاء الجسد الحقيقي الطبيعي. وفي ذات السياق ظهر اتجاه في الفن المعاصر يدعو إلى بتر بعض من أجزاء الجسد أو تشويه بعضها الآخر وتجريد هذا الجسد من طبيعته أو ما يسمى ب La lipophobie أو الخجل من جسدنا الطبيعي، والسعي لبناء جسد جديد مختلف وجميل اصطناعيا .

وقد يعود هذا الهوس بالجسد الجديد والمصطنع إلى ذلك الفراغ الرهيب الذي تركته الميتافيزيقا خلفها. عندما اجتمعت الفلسفات على محاربتها ، لكن الإنسان كما يقول فيورباخ أكثر من الطبيعة إذ يخشى الفراغ ، فراغ يملأ هذه الفراغ الميتافيزيقي بالتعلق المرضي بصورة الجسد فجعل منه ديناً بديلاً وديناً جديداً بعد أن أعلن نيتشه عن موت الإله. وعندما يتوقف الإنسان عن الإيمان بالله بإمكانه أن يؤمن بأي شيء . وراحت التقنية تستعير من الميتافيزيقا لغتها وارادت أن تجعل هذا الجسد خالداً بعد أن كان الخلود صفة النفس والروح . فرهان الطب المعاصر تأجيل و تبطيء شيخوخة الجسد والقضاء على كل مظاهر الضعف في الإنسان كالنسيان والأمراض الى غاية الوصول الى القضاء على الموت او كما يسميه بومان موت الموت . ويكفي أن نلاحظ الأرباح التي تجلبها الصناعات الصيدلانية والتنافس الرهيب لشركات الادوية في العالم نتيجة الإقبال المتزايد على مواد الصيدلانية المضادة للتجاعيد مهما بلغت أسعارها وذات الإقبال على عيادات جراحة التجميل التي تعيد رسم الجسد وفق رغبات الإنسان . ويكفي كذلك ان نقارن بين الرياضي الذي يبذل مجهودات كبرى إلى غاية الموت و بين المرأة عارضة الأزياء التي تقتل جسدها جوعاً حتى تحافظ على صورة مثالية لجسدها . فكلاهما يعيش تحدياً امام منافس وحيد هو الجسد حيث دخل الإنسان معترك الوجود من اجل الفوز بجسد أقوى و أجمل .

الجسد محور العالم الراهن :

الجسد اليوم هو محور الكون كله ، بل هو محور العلوم كلها وليست العلوم ذات الطابع الاعتباري التي تنتسب الى علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الانثربولوجيا فحسب ، وإنما يتعدى ذلك إلى العلوم ذات الاتجاه الطبيعي . ومن الذي يستطيع أن ينكر ان التشريح قد جعل موضوعه الأساسي هو الجسد؟، ومن الذي يستطيع أن ينكر ان الطب هو علم رئيس في تطور الفكر البشري وتطور الحضارة وموضوعه الأساسي هو الآخر الجسد ؟ ومن يستطيع كذلك أن ينكر أن الاقتصاد الذي يعتبر علم متقدم في خانة العلوم الاعتبارية أصبح موضوعه هو الإنسان في بعده الجسدي من حيث الإنتاج و الإستهلاك ؟

ان الفلسفة الغربية ابتداءً من ثورة نيتشه إلى الآن، أصبح الجسد موضوعاً رئيسياً وجوهرياً، بل الغريب ان هذا الجسد دخل في نظرية المعرفة التي تعتبر الجزء الحيوي في مدرسة الفلسفة الكلاسيكية. فالجسد هو هذا العالم الكبير او هذا العالم الضخم . وقد يتبادر إلى الذهن ان الجسد هو أعضاء الجسم الإنساني او هذا الجسم الإنساني ذو الأبعاد الثلاثة او الأربعة ، وقد يتصور ان الجسد هو هذه الأعضاء التي هي

وسيلتنا في الاتصال ما بين العالم والدماغ ، أو ما بين العالم الخارجي وذهننا .. فالجسد عندما يطرح في الفلسفة المعاصرة أوحى عندما يطرح في الفلسفات القديمة ، هو تلك العلاقات الغامضة ، والعلاقات البديهية في ذات الوقت ما بين أعضاء التكوين البشري وهذا الجسم الذي يتكون من هذه الأعضاء ، تنبثق منه علاقات هائلة ، علاقات لا يمكن الإمساك بها ، علاقات أحيانا تتحكم بنا ، علاقات لا يمكن للأدب ان يصفها بدقتها ولا يمكن للعلوم ان تتمكن منها الى حد كبير . وهذه العلاقات تمرت على الرقم و على المنطق وحتى على نظرية التحليل النفسي ليسكmond فرويد .

إلّا أنّ العالم الراهن روض مقولة الجسد منذ لحظة الميلاد ، بل قبل لحظة الميلاد : إذ نشهد اليوم بنوكا لحفظ البويضات و لحفظ الحيوانات المنوية باعتبارهما حاملين للوجود الجسدي لإنسان المستقبل وقد تلجأ المرأة الى حفظ بويضاتها في البنوك وكأنها بذلك هي التي تختار متى وكيف تحمل في جسدها هذا الجنين ، وذات الامر بالنسبة للرجل . وعندما يقرر الزوجان الإنجاب يتدخل العلم ليقدم لهما إمكانية اختيار جنس المولود أو جسد هذا المولود . وتستمر التقنية في تقديم إمكانات عديدة لهذا الإنسان بعد ميلاده كأن يغير بعض من ملامحه التي لا تعجبه عن طريق جراحة التجميل او تغيير من جنسه إن كان ذكراً أو أنثى من خلال عملية التحويل الجنسي التي تستعين بالجراحة وبالهرمونات الصناعية ، فأصبح الجنس اختياراً شخصياً يمارس فيه الانسان حريته وليس معطى طبيعياً . وفي سياق مواز تسارعت الابحاث التكنولوجية والسيبرنيطيقية التي تعزز بعض الملكات في الإنسان بشرائح اصطناعية تعالج ضعف البصر أو السمع أو الدماغ أو القلب كما تشغل أبحاث أخرى على الذكاء الاصطناعي وإنسان القرن الحالي او ما يعرف بالسايربورغ

الخاتمة :

يبدو ان الحمولة الفلسفية لسؤال الجسد لم تستنفد بعد ، إذ لا يزال الانسان اليوم يطرح العديد من التساؤلات حول نفسه : هل الإنسان إنسان بالعقل أم بالجسد ؟ و كان لمثل هذا التساؤل بعد إقصائي انتصر فيه العقل على الجسد طيلة قرون من التفكير الفلسفي والديني أين سادت مقولة الإنسان العاقل . ويبدو أنّ هذه الماهية لم تكن مخلصه لحقيقة الإنسان وطبيعته التي تجمع بين العقل و الجسد . فراحت الفلسفات المعاصرة لتخرج الجسد من هذا الصمت الأكبر و تجعله منطوقاً وموضوعاً للتفكير الفلسفي و راهنت التقنية على الجسد لتجعل منه محوراً فعالاً لوجودنا و كلما تقدمت الحضارة وأمدت هذا الإنسان بمعطيات وأدوات جديدة ، فتحت له أفاقاً جديدة في معرفة ذاته . لكن يبدو أننا وصلنا اليوم إلى زخم كبير في معرفة الذات هو

قريب من تضخم مرضي تظهر اثاره في هذا الاغتراب الذي يعيشه الانسان والذي يصاحبه قلق وجودي متزايد .

لكن مهما نجحنا في تجاوز بعض الصعاب ، إلا أن علاقة الإنسان بجسده لا زالت محاطة بكثير من الحرج والقلق ولم ترق الى مستوى المصالحة مع الجسد بكل ما يحمله من مكونات . إن المصالحة مع الجسد هي رهان الإنسان المتوازن السوي الذي سيتصالح مع الطبيعة ككل ويحافظ على طبيعة كل جزء من وجوده بما في ذلك العقل والجسد . فالتصالح مع أجسادنا مرهون بالتصالح مع طبيعتنا أولاً و الطبيعة الكبرى ثانياً لعلنا نسترجع طبيعة الانسان كما خلق ..

Bibliographie:

- Bruaire, C. (1969). philosophie du corps comme discipline. *revue philosophique du louvain* , p. 104.
- constantinides, y. (2013). *le nouveau culte du corp*. france : livres broché.
- Fernand.Schwrz. (1998). *Initiation au livres des morts egyptiens* . Albin Michel .

- افلاطون .(2001) *محاورة فيديون* . القاهرة : دار قباء للطباعة و النشر .
- اوغسطين، ا .(1987). *اعترافات* . مصر : دار الشرق للنشر .
- ديكارت .(2009) *تأملات في الفلسفة الأولى* . القاهرة : المركز القومي للترجمة.
- سبينوزا .(2009) *علم الاخلاق* . بيروت : المنظمة العربية للترجمة.
- ابن سينا .(1952) *الشفاء* . القاهرة : المطبعة الاميرية.
- صليبا، ج .(1994) *المعجم الفلسفي* . بيروت : الشركة العالمية للكتاب .

- ليبنيتز. (2015). *المونادولوجيا* . بيروت : المنظمة العربية للترجمة.
- نيتشه. (2011). *ارادة القوة* . افريقيا الشرق.